المبحث الأوَّل

البناء الإسلامي للمجتمع

الإنسان — بصفتيه : الفرديّة ، والاجتماعيّة - لا ينفك عن ثلاثة أمورٍ تمثل نزوعه الإنساني ، وهي على التّوالي :

- طموح يتسامى به نحو طلب الأفضل والتّعلّق بالسّعادة .
- ومنهج يرسمه لتحقيق ما استطاع من ذلك الطموح .
- وخطوات يقطعها عملياً وفق ذلك المنهج لتحقيق ذلك الطموح .

وقد حاولت البشريّة في دوراتها الحضاريّة الكثيرة ، وعهودها القديمة والحديثة تحقيق تلك الأمور الثلاثة معتمدةً على خبراتها وتجاربها المتراكمة ، وعلى فلسفاتها العقليّة ، وعلى التّقلّب بين الصّور المتناقضة من الحياة .

ولكن النتيجة كانت واحدة ؛ وهي الفشل إمّا كُلِّياً ، أو جزئيّاً في تحقيق السّعادة التي تفلت من يديها كلّما تصوّرت أنّها اقتربت منها ، وهذا ناتجٌ عن فشلها في رسم المنهج السّليم للوصول إلى تلك السّعادة ؛ ممّا جعل خطواتها ضرباً في بيداء التّيه ، وجهوداً دون نتيجة .

والعلّة في هذا الفشل واضحةٌ ، وبسيطةٌ ، ولكنها عظيمةٌ ، من حيث اعتراف الإنسان بها من جهة ، وأخذه بمقتضاها من جهة أخرى .

إنّ العلّة هي : أنّ الإنسان عاجزٌ بفطرته عن تحقيق تلك المطالب الثلاثة بنفسه ، أيّ بعقله مستقلاً ، وبخبرته المحدودة ، وأنّه لا بدّ له لينجو من هذا الفشل من الاستعانة بالمَدَد الإلهي المتمثِّل بالوحي المنزل من الله خالق الإنسان والكون والحياة على رسولَه المصطفى من النّاس .

فإذا اتخذ الإنسان هذا الوحي موجهاً لحركته وراسماً لأهدافه ، ثمّ شحذ قدراته العقليّة والتّجريبيَّة في إطار توجيهات هذا الوحي ، فإنّه سيصل – إن شاء الله – إلى تحقيق تلك المطالب في حياته الفرديّة والجماعيّة ، وسيرتقي إلى درجات مقاربة للنّموذج الأعلى للإنسانيّة السّامية التي نالت الكمال الإنساني في حدود ما تسمح به الطّاقة البشريّة .

وحتى تستبين الصورة الواقعيّة للفشل والنّجاح في حياة البشريّة في هذه الأمور الثّلاثة ، نشير إلى الفترة التّاريخيّة التي ظهر فيها دين الإسلام ببعثة محمّد بن عبد الله ﷺ بالنّسبة للأمم عامة وللعرب خاصةً .

ولكن قبل ذلك نورد تقرير القرآن الكريم لهذه الحقيقة الكبرى ، وهو التقرير الذي يحمل الحقّ المطلق ؛ لأنّه منزّل من العليم الحكيم ، الذي خلق الإنسان وأودعه تلك النَّزعات الغريزيّة فيه ، وهو أعلم به – حتى من نفسه – ﴿ **أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ** ﴾[1] ، يقول سبحانه في سورة طه : ﴿ **قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ** ﴾[2] .

ففي هذه الآيات بيّن – تعالى – بياناً واضحاً صورتين متقابلتين :

الأولى : اتّباع هدى الله الذي أتى به الرّسل للنّاس ، وصورته القائمة الآن في الوجود الإنساني ، ومنذ بعثة محمّد ﷺ هي : القرآن الكريم والسنّة الثّابتة عن رسوله – ﷺ – . والمتّبع لهذا الهدى اتباعاً سليماً يحظى بمزيتين :

---

(١) الآية رقم (١٤) من سورة الملك .

(٢) الآيات (١٢٣-١٢٦) من سورة طه .

- مزيّة الاهتداء للحق علماً به ، واستجابةً له وتمثلاً به ، والنّجاة من الضّلال الذي يتمثّل في التيه الفكري، وعمى البصيرة والتشبث بنظريات وفلسفات وأديان فاسدة باطلة .
- ومزيّة نيل السّعادة ؛ أمناً نفسياً ، وحياةً طيِّبةً في هذه الحياة، وفلاحاً في الحياة الآخرة .

الثّانية : الإعراض عن ذكر الله الذي بعث به رسوله : قرآناً وسنّةً لا يتعلّمه ولا يعمل به ، ومهما حاول التّعويض عمّا أعرض عنه من الوحي بالفلسفات والنّظريّات، وألوان الفنون، والنّظم الوضعيّة، فإنّه سيبقى رَهينَ النَّتيجتين التّاليتين :

- البؤس الدّنيوي والشّقاء النّفسي وتعاسة الحياة التي تلازمه أياً كان وضعه المادي جاهاً وثراءً وبروزاً فكرياً أو سياسياً أو غيره . وكل هذا تجمعه لفظتا ﴿ مَعِيشَةً ضَنكًا ﴾ في الآية .

وقد يفهم فاهمٌ أنّ المعادلة قائمة بين إنتاج البشر كله و هدى الله المنزّل، وأنّه إذا كان الثّاني مصدر السّعادة لكونه الحق، فإنّ الأوّل –وهو إنتاج البشر– مصدر الشّقاء وأنّه باطل .

وهي معادلة غير صحيحة .

فالمعادلة هي بين اتباع هدى الله والإعراض عنه . أمّا جهود البشر فإنّ فيها خيراً وحقاً ، وهذا الخير والحقّ لا يضاد هدى الله أبداً؛ لأنّ الحقّ لا يضاد الحقّ، لكنّه حقٌّ جزئي في شؤون الحياة العمليّة، فإذا كان الذي يحمله متبعاً هدى الله فإنّ هذا الحقّ الذي اكتسبه بفكره أو تجربته ينفعه في تحقيق سعادته .

أما إذا كان حامل هذا الحق الجزئي في القانون أو النظريات النفسية أو الاجتماعية أو غيرها معرضاً عن هدى الله مُتَنَكِّباً شرعه، فإنّ نفعه له محدودٌ جداً بمصالح قريبة على حساب مصلحته الكبرى، في سعادته الدنيوية وفلاحه الأخروي، وهو شبيه بالذي يعالج جرحاً لِمَيِّتٍ، قد يوقف نزيفه أو يزيل صديده، ولكنه لن يعيد الحياة إليه .

- النتيجة الثانية للإعراض عن هدى الله هي : الخسار الماحق يوم القيامة .

وإذا كانت النتيجة الأولى تُفقد الإنسان قيمة حياته الدنيا ، فإنّ النتيجة الثانية أخطر وأعظم، على الرغم من أنّ الناس لا يكترثون لها كثيراً ، تناسياً لها واستغراقاً في دنياهم التي أصبحت مبلغ العلم ، وأكبر الهم لديهم ، وكأنها هي الحياة الوحيدة لهم .

إنّ الحياة الآخرة هي الحياة الحقيقية ﴿ **وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ** ﴾[1] . وهي قريبة من الإنسان مهما امتدت حياته لأنّها تبدأ بموت الإنسان بعد عُمْرٍ لا يتجاوز القرن لمن عُمِّرَ، ومن تجاوزها فهو في عداد الموتى وإن كان حياً، وكثيراً ما يَفْجَأُ الموت الإنسان في حادث مواصلات ، أو مرض غير مُمْهِلٍ ، أو نحو ذلك، وهو ما يزال يخطط لمستقبل حياته الدنيا ، غافلاً عن آخرته التي صار إليها، تاركاً دنياه وخططه المستقبلية لها ، والنتيجة يوم القيامة هي : ﴿ **وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ** ﴾[2] حيث يشعر بالهوان والمصير السيئ .

ولا مجال للاحتجاج أو حتى التساؤل من مثل : كيف أتحول من مُفكّر كبير، أو قائد عظيم ، أو ثريٍّ يُشار إليه بالبنان ، أو وجيه يتبعه الناس إلى هذه الحال المعاكسة ؛ لأنّ معيار التقويم هناك يرتكز على « تعامل الإنسان مع وحي الله »

(١) الآية رقم (٦٤) من سورة العنكبوت .

(٢) الآية رقم (١٢٤) من سورة طه .

اتباعاً له؛ ومن ثم فلاحاً ونجاة، أو إعراضاً عنه؛ ومن ثم عَمًى وخزياً وخساراً ﴿قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾[1]. والحياة الآخرة حياة فردية يحاسب فيها كل شخص وحده: ﴿وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا﴾[2].

أما الحياة الدنيوية فإنَّ لها جانباً فردياً يتعلق بالشخص الفرد، وجانباً جماعياً يتعلق بالمجتمع أو بالأمة ككلٍّ.

فكما أنّ الإنسان إذا أعرض عن هدى ربه وآثر الدنيا يعاني الشقاء والتعاسة وخبث الحياة، حتى ولو كان مجتمعه أو أهله صالحين طَيِبيْ الحياة، كذلك فإنّ المجتمع إذا لم يلتزم هدى الله في أهدافه وعلاقات أفراده، وإذا تخلى عن أخلاقيات الإسلام وتواطأ أفراده على ذلك، وتهاون علماؤه وقادته في هذا الشأن، فإنّ المجتمع كله يصيبه البلاء والأدواء والفساد، وينحلُّ حضارياً، ويتراجع إلى الصورة الحيوانية لأفراده، حيث لا يبقى للإنسانية معنًى فيه، ومن ثم يفقد قيمته، ويسقط من عين الله.

هذه نظرات في آيات سورة طه نتبعها ببعض النصوص التي تؤكد تقرير هذه الحقيقة العظمى وهي «أنّ السعادة في التزام منهج الله، وأنّ الشقاء في الإعراض عنه».

يقول سبحانه: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[3]، ويقول سبحانه:
﴿وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝٢ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ

(١) الآية رقم (١٢٦) من سورة طه.
(٢) الآية رقم (٩٥) من سورة مريم.
(٣) الآية رقم (٩٧) من سورة النحل.

﴿ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴾ [1] ، ويقول – تبارك وتعالى – مبينا أنّ ما خالف وحيه من أنظمة وفلسفات ونظريات ما هو إلا ظنونٌ وأوهامٌ وأهواءٌ بشريةٌ مهما أُضفيَ عليها من الهالات العلمية والإنسانية وأمثالها : ﴿ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ [2] ، ومثل هذا قوله تعالى : ﴿ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الأَنفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَىٰ ﴾ [3] .

وبيّن الله – سبحانه – أنّ القسط المتمثل بالحق والعدل – وهما القيمتان اللتان لا تقوم حياةٌ إنسانيةٌ بدونهما – لا يتحققان إلا باجتماع أمرين، هما :

– الوحي = الكتاب ، والسنة بحكم أمر الكتاب باتباعها .

– والعقل السليم = الميزان .

قال سبحانه : ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ﴾ [4] .

وخلاصة ما يقرره القرآن في أمر هذه القضية : أنّ الإعراض عن وحي الله وتعاليم رسوله ﷺ، وعدم الانتفاع بها في أي حضارة أو مجتمع بشريٍّ ، يؤدي إلى انقطاع الناس عن ربهم، واختلال حياتهم ، وافتقادهم عوامل التوازن والاعتدال والاستقرار ، مما يسير بهذه الحضارة أو الأمة أو المجتمع إلى الانتحار والانهيار .

---

(١) الآيات (١-٣) من سورة العصر .

(٢) الآية رقم (١٢٠) من سورة البقرة .

(٣) الآية رقم (٢٣) من سورة النجم .

(٤) الآية رقم (٢٥) من سورة الحديد .

ولتوضيح ذلك واقعياً نسترجع تاريخ البشرية حين ظهر الإسلام ببعثة الرسول ﷺ .

فقد كانت تلك القرون التالية للرسالات التي كانت آخرها رسالة عيسى – عليه السلام – وحتى القرن السادس الميلادي قرون ظلامٍ حضاريٍّ وتقهقرٍ لإنسانية الإنسان، تتماثل في ذلك الأمم البدائية والمتمدنة . فالعقائد – وهي الأساس الذي تقوم عليه حياة الإنسان – مرتكزها الوثنية المتمثلة بتعدد الآلهة، من الأصنام والأوثان ومظاهر الطبيعة، كالكواكب والنور والظلام، وبعض الحيوانات، كالبقر، وبعض الأنبياء ، والملائكة .

وكانت التصورات عن الآلهة عمادها القياس على الصورة البشرية أحياناً في أسوأ صورها الخلقية ، فقد كان رب الأرباب (جوبتر) لدى اليونان إلهاً في صورة شيطان، وكان حَقُوداً لَدوداً ، مشغولاً بشهوات الطعام، والجنس، دائم الغضب والكيد للآلهة الأخرى من حوله ، خاصةً إله الطب (أسقولاب) الذي يشفي الناس ، فيحرم (جوبتر) من جباية الضريبة التي يأخذها على أرواح الموتى. وكذلك (برومثيوس) إله المعرفة والصناعة ، الذي يُعَلِّمُ الناس معرفة استخدام النار في التصنيع، فيغنيهم عن رب الأرباب. والعبادات تحولت إلى طقوس شركيّة تُمَارَسُ لإرضاء الآلهة المزعومة ، وأحياناً لكيد هذه الآلهة ،كما لدى اليونان الذين كانت بعض صور عبادتهم نوعاً من الرّقص ، الذي يُغنِّي فيه المُغَنِّي ممجِّداً العقل ، وداعياً الآلهة ألاَّ تتدخلَ في شؤون حياة الإنسان[1] .

ومثل ذلك سائر جوانب الحياة ، فقد تَغَلْغَلَ فيها الفساد حتى لم تعد إنسانيَّةً سويَّةً تتمثل المعروف الذي فطر الله عليه العباد وجاءت به الأديان .

---

(١) انظر: ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، أبو الحسن الندوي، ص ١٨١، ط٩، ١٣٩٦هـ.

ففي ظل غياب شريعة الله وعزل وحيه عن توجيه الحياة البشرية تحكمت الأهواءُ والشهواتُ الجنسيَّةُ والماديَّةُ في النفس الإنسانية ، وصارت النظم والحروب تقام من أجل تحقيق هذه الشهوات .

والمقاييس الخلقية والآداب والفنون وُضِعَتْ كُلُّها في ظل تحكّم هذه الشهوات، فكانت وسيلةً مساعدةً على الانغماس فيها أكثر فأكثر . والحركة المضادّة لهذا الجموح الشهواني لدى الإنسانية ضَلَّتْ هي الأخرى سواء السبيل؛ لأنها لم تهتد بوحي الله ، فساقت الناس نحو الرهبانية المحاربة لمُتَعِ الحياة حتى المباح منها ، بل والضروري ، وجعلت سبيل الحياة السَّوية وطريق الفلاح هو اعتزال الحياة الدنيا ، ومقاومة الغرائز الإنسانية، وحرمان النفس من المتطلبات الفطريَّة والشرعيَّة في الحياة الماديَّة ، فسحقت الإنسان، وشَلَّتْ وُجودَه الإنساني.

ومن صور الضلال التي لازمت البشرية في مسيرتها ، البعيدة عن هدى الله: الطَّبَقيَّةُ المقيتَةُ التي تنتهي إلى استعباد الناس ، وإلغاء كرامتهم، وسحقهم تحت وَهْمِ رُبُوبيَّةَ حَفْنَة من رجال الدين المُقَدَّسين كما في المجتمع الهندي، أو من رجال الحكم كما في إيران الكسْرَويَّة، أو من شعب ذي عرقٍ مُعيَّنٍ على الشعوب الأخرى، كما فعل الرومان مع الشعوب من حولهم.

ولما كانت رسالة عيسى -عليه السلام- مُطَارَدةً منذ إعلانه بها ، وكان الفاصل بينه وبين النبيِّ الخاتمِ محمَّد ﷺ ستة قرون تقريباً ،لم يبعث فيها نبيٌّ يَردُّ الناس نحو إنسانيتهم السوية، فإنّ اختلال الحياة البشرية في غاياتها وطموحاتها، وفي تنظيمها، وفي حركتها العملية كان يزداد ويتفاقم حتى احْلَوْلَك الظلام على هذا الكوكب الأرضي ، سواء في شرقه الذي كان مهد

الديانات التي تلاشت أنوارها، أو في غربه الذي عجزت فلسفاته عن إصلاحه.

يقول " روبرت بريفولت " : « لقد أطبق على أوربا ليلٌ حالكٌ من القرن الخامس إلى القرن العاشر، وكان هذا الليل يزداد ظلاماً وسواداً ، لقد كانت همجية ذلك العهد أشدَّ هولاً ، وأفظع من همجية العهد القديم ؛ لأنّها كانت أشبه بجثَّة حَضَارة كبيرة قد تعفَّنت ، وقد انطمست معالم هذه الحضارة ، وقضي عليَها بالزوال، وقد كانت الأقطار الكبيرة التي ازدهرت فيها هذه الحضارة ، وبلغت أوجها في الماضي كإيطاليا وفرنسا فريسة الدمار والفوضى والخراب »[1].

والديانات التي كان يرجى منها هداية الإنسان ووقف فساده هي نفسها فسدت وصارت مَبَاءةً للضّلال والانحراف والاستغلال الشهواني ، « لقد أصبحت الديانات العظمى فريسة العابثين المتلاعبين ، ولعبة المُحَرِّفين والمنافقين، حتى فقدت روحها وشكلها، فلو بُعِثَ أصحابها الأولون لم يعرفوها، وأصبحت مُهُودُ الحضارة والثقافة والحكم والسياسة مَسْرَحَ الفوضى والانحلال والاختلال وسوء النظام وعسف الحكام ، وشغلت بنفسها لا تحمل للعالم رسالةً ، ولا للأمم دعوةً ، وأفلست في مَعنويَّاتها ، ونَضبَ مَعينُ حياتها لا تملك مَشْرَعاً صافياً من الدين السماوي ، ولا نظاماً ثابتاً من الحكم البشري »[2].

ولقد كان الأمل في تلك القرون السابقة لبعثة محمد ﷺ غير منتظر من الديانات القديمة، بقدر ما هو مُؤَمَّلٌ من النصرانية بحكم جدتها من جهة ، وما تهيَّأ لها من أسباب التمكُّن في المجتمع الغربي ، وكثرة رجالها ، وزاعمي

(١) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، أبو الحسن الندوي، ص ٤٤.
(٢) المصدر السابق، ص ٣٧.

التجديد فيها من جهة أخرى ، ولكنه أملٌ في غير مَأْمَلٍ ؛ لأن هذه النصرانية نفسها قد غشيتها الغواشي التي أفسدت حقيقتها ، فلم تعد الديانة التوحيديّة التي جاء بها عيسى من ربه ، ولكنها دينٌ آخر بشريٌّ ، فلم تقدم أيّ غناء لحياة أتباعها فضلاً عن غيرهم إن لم تُسْهِم في إفساد هذه الحياة بأكثر مما هو موجودٌ ، وكما يقول " ليكي " : « إننا مضطرون إلى القول بأن المسيحيّة قد وجدت فرصةً كاملةً للاختبار ، ولكنها فشلت فيه ولم تنجح »[1] . حتى وقر في خلد الغربيين بعد انسلاخ القرون أنّ صلاح الحياة الذي يرجونه لن يكون في الالتجاء إلى الدين – النصراني الكنسي – بقدر ما هو في الانفلات منه ، والاعتماد على الذات الإنسانية بعيداً عن هدي الله .

المجتمع العربي قبل الإسلام :

لم يكن المجتمع العربي مُتميِّزاً عن المجتمعات الأخرى في ذلك الوقت ، لقد بَعُدَ عَهْدُهُ بالنبوّة الهادية ، فأصابه الانحطاط والتخلف دينياً ، وثقافياً ، وحضارياً .

كان الشرك هو المنهج الديني السائد ، فعلى الرغم من اعترافهم بأنّ الله هو وحده خالق الكون ومُدبِّره ، ومُصرِّفُ سُنَنه ، إلا أنّهم حين التوجّه بالتعبد لا يتّجهون إلى الله مباشرةً ، وإنّما يتّخذون من دونه أولياء يعبدونهم ، أو يتقرّبون إليهم ليقرِّبوهم إلى الله ، وتنوّعت آلهتهم التي يعبدونها ، فبعضهم عَبَدَ الملائكة ، وبعضهم عَبَدَ الجنّ ، وبعضهم عَبَدَ الشمسَ والقمرَ والكواكبَ ، وبعضهم اتّخذ الأصنام والأوثان ، حتى كانوا يعبدون سائر أنواع الحجارة والتراب[2] .

---

(١) الإسلام تشكيلٌ جديدٌ للحضارة ، لمحمد تقي الأميني ، ترجمة مقتدي ياسين ، ص ٣١ ، الرياض ١٤٠٢هـ .

(٢) قال أبو رجاء العطاردي : « كنّا نعبد الحجر ، فإذا وجدنا حجراً هو خير منه ألقيناه وأخذنا الآخر ، فإن=

وشاعت فيهم أعرافٌ وتقاليدُ سيِّئة ، فكان شرب الخمر دَيْدَنَ حياتهم ، حتى عده بعضهم فضيلةً لا يتخلّى عنها إلاّ اللئيمُ البخيلُ ، وكان انتهاب اللَّذَّات الجنسية إحدى أهدافهم الحياتية ، حتى قال طرفة عنها وعن الخمر :

ولولا ثلاث هُنَّ من شيمة الفتى وجدّك لم أحفل متى قام عوّدي

فمنهنَّ سبقي العاذلات بِشربةٍ كميت متى ما تغل بالماء تُزبد

وتقصير يوم الدجن والدجن معجب ببهكنةٍ تحت الخباء المعمد [1]

ومن تقاليدهم التي أغرموا بها القمار ، حتى إنّ الشخص يقامر على كل ماله وعلى زوجته وأولاده .

ومثل ذلك : وأد البنات بإنهاء حياتهن وهُنَّ صغيراتٌ ، إمَّا بدفنها حيةً أو وضعها أمام مَغَارة سباعٍ ونحو ذلك ، بغضاً للبنت ، أو خوفاً من عارها ، أو خشيةً من مؤونتها ، أو لزيادة بناته على الحدِّ الذي يقدره . . .

ومن أسوأ صور التخلّف الحضاري في المجتمع العربي قبل الإسلام : فقدانُهُ الاستقرار السياسي والاجتماعي ، وقيام حياته على الفردية التي لا تتجاوز حدود القبيلة ، واعتماده النهب والسلب والغارات المتبادلة ، وشن الحروب لأتفه الأسباب ، فليس لهم -كما للأمم المحيطة بهم- نظامٌ سياسيٌّ جامعٌ ضابطٌ ، ولا قوانينُ رادعةٌ ، ولا مواثيقُ إنسانيةٌ تُحفَظُ بها الحقوقُ ، وتُدْرأُ بها الشرورُ .

= لم نجد حجراً جمعنا حثوة من التّراب ثم جئنا بالشاة فحلبناها عليه ، ثم طفنا به » . رواه البخاري في صحيحه ، كتاب المغازي ، باب وفد بني حنيفة ، ٥/ ١١٩ ، المطبعة الإسلامية ، تركيا .

(١) انظر : الشعر والشعراء ، ابن قتيبة ، ١/ ١٢٣ ، الطبعة الثانية ، دار الثقافة ، بيروت .

نعم كان هناك لدى العرب كما لدى الأمم الأخرى تقاليدُ وأعرافٌ تضعها القبائل لأنفسها ، وكان هناك صورٌ من الأريحيَّة الإنسانيَّة لدى بعض الناس نابعة من المروءة والكرم وحب الخير ، وكان هناك بعض ذويَ البصائر المستنيرة التي تدرك فساد الحياة وبطلان الوثنية ، وهم المُسَمَّوْن بالحنفاء ، ولكن كل ذلك لم يكن قادراً على تحويل مجرى الحياة نحو الحق والصّلاح في جوانبها المختلفة المهترئة .

في هذه الأجواء العالميّة والعربيّة ، ظهر الإسلام في القرن السابع الميلادي في جزيرة العرب على يدي نبي الله محمّد ﷺ ، الذي قدّم للبشرية هداية الله لحياتها المنحرفة ، ورسالته لعلاج مشكلات الإنسانيَّة في كل الميادين ، وهي الهداية الكاملة التامة الباقية -دعوةً للبشرية- إلى زوال الدنيا .

بعثة محمّد ﷺ :

تتابعت قبل بعثة محمّد ﷺ رسالاتُ الله إلى الخلق من خلال أنبيائه الذين أرسلهم لتعريف الناس بالتصوّر الصحيح عن الوجود ، ومنهج الحركة السليم في الحياة ، ولكن هذه الرسالات بسبب أعدائها وبعض أتباعها حُرِّفت وبُدِّلت ، حتى لم تعد قادرةً على إمداد الإنسان بأسباب السعادة في التصوّر ، ومنهج التعبد ، والأخلاق والعمل ، فبعث الله محمّداً ﷺ في العرب الأميين ، الذين كانت قلوبهم أوعيةً مهيّأةً لاستيعاب الدين والتّفاعل معه بصفاء ، وحمله بإيمان مكين ، إذ لم تكن لديهم فلسفاتٌ ولا ثقافاتٌ نظريّةٌ تُشَوِّهُ حقيقة الدين إذا تَلَقَّوْها .

تلقّى النّبي ﷺ وحي ربه ، وبدأ دعوته فيمن حوله سراً أوّل الأمر ، ثم إعلاناً بعد ذلك ، وآمن به بعض الناس ، ولكن الوثنية ثارت ثائرتُها أمام هذه

الدّعوة التوحيدية التي تصادمها مصادمةً مباشرةً، فضايقوا الدّعوة، وحاربوا أتباعها، ثم هاجر الرسول ﷺ من مكّة إلى المدينة التي كانت قد انتشر فيها الإسلام، وسبقه إليها كثيرٌ من أتباعه هروباً من الاضطهاد، وطلباً لنصرة الدين الذي اعتنقوه.

في المدينة تَشكَّل المجتمع المسلم والدولة الإسلامية بقيادة الرّسول ﷺ حيث أقيمت فرائض الدين، وتكامَل تشريع العلاقات والمعاملات، وتحقق تطبيقها في مجتمع الصّحابة برعاية الرّسول ﷺ، حيث سيصبح هذا المجتمع بسمته ونظمه النموذج الأعلى لتمثل تعاليم الإسلام، ومن ثم القدوة للمجتمعات البشرية إلى قيام السّاعة.

وهكذا خلال الثلاث والعشرين سنةً، من بعثة الرسول ﷺ حتى وفاته من عام (٦١٠م) حتى (٦٣٢م) قدَّم الإسلام للبشرية الحائرة المتطلِّعة نحو تجاوز أوضاعها الحضارية المتدهورة نموذجاً نظرياً وتطبيقياً للمجتمع الإنساني الأسمى:

- نظرياً من خلال تعاليم الوحي: القرآن المنزل من الله لفظاً ومعنًى، والسنّة المطهّرة الثابتة، التي تمثِّل جزءاً من الوحي وتبيِّن القرآن، وهما مصدران للحقيقة المطلقة في العقيدة، والتعبد، والأخلاق، وسائر شؤون حياة الإنسان، لا مجال لتوهّم إمكان الخطأ أو النّقص فيهما؛ لأنّهما من علم الله الحق الذي أنزل القرآن، وقال عنه: ﴿**لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ**﴾[1].

- وتطبيقياً من خلال مجتمع الصّحابة الذين تلقّوا تلك التعاليم وكيّفوا حياتهم بها، ومجتمع الصّحابة مجتمعٌ بشريٌّ لا يحمل أفراده العِصْمَةَ من

(١) الآية رقم (٤٢) من سورة فصلت.

جهة، وحدود طاقتهم لا تتجاوز مستواها البشري في إطار الظّروف التي عاشوها من جهة أخرى، ولكن هذا المجتمع على الرّغم من ذلك يمثل الذِّروة ؛ أي الصورة العليا في تَمَثُّل الإسلام فهماً وعملاً لمبررات كثيرة من أبرزها :

- صحبتهم للرّسول ﷺ حيث تَرَبَّوا على يديه وهو يتلقّى الوحي من ربِّه .
- وسلامة فطرهم ؛ التي لم تَزِغْ بها الفلسفاتُ والأفكارُ المُشوَّهة .
- وسلامة منطقهم أي : لغتهم، حيث كانوا يتعاملون باللغة العربية التي جاء بها الوحي سليقةً ، فيَعُونَ ما يجيء به أعظم من وعي من تعلم اللّغة بعد عجمة أو لحن . . . إلى آخر المبرّرات التي امتاز بها الصَّحابة رضوان الله عليهم، وفقدها أو ضعفت لدى من جاء بعدهم[1] .

هذان النموذجان يمثلان الهداية الإلهية للبشرية حيث تنحصر الهداية بهما، فمن أراد السّعادة والفلاح فرداً أو مجتمعاً ، فلا مَناصَ له من التعويل عليهما وصبغ وجوده بتوجيهاتهما، ومن عزف عن الاستمداد منهما وحمل هدايتهما، فإنّه حتماً قد اختار طريق الفشل والشّقاء والخسار مهما اعتمد من مصادر المعرفة، حدساً، وعقلاً ، وذوقاً ، وغيرها، ومهما تَقَلَّبَ بين التجارب البشرية التي أخذت بها أمم أخرى بعيداً عن هدي الله .

معالم التّشكيل الإسلامي للمجتمع :

*** إعادة الإنسان لفطرته السّوية :**

الإنسان ومن ثم المجتمع في أي عصرٍ ومكانٍ إذا انفلت من هدي الله

(١) انظر في هذا : مناهج البحث في العقيدة الإسلامية في العصر الحاضر، للمؤلف، ص ٤٣٩، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ، دار إشبيليا، الرياض.

فسدت عقليّتُهُ، وانتكست إنسانيَّتُه، وانطمست فطرتُهُ، وتشوّهتْ بَديهياتُهُ، وسادت العبثية وجوده وحركته، وانقلبت قيمه إلى أضدادها معروفاً، ومنكراً.

ولهذا كانت الخطوة الأولى لدعوة هذا الإنسان نحو الإسلام هي إعادة الإنسان إلى وضعه الصّحيح بصفته مخلوقاً متميِّزاً مستقلاً له وظيفةٌ محدّدةٌ في هذه الحياة، وذلك ببعث فطرته السّوية بما أودعها خالقها من معاني التّوحيد، والقيم الخلقية، والنَّزعات الرّوحية التي بها تتبلور إنسانيَّةُ هذا الإنسان، وتميزه على المخلوقات المحيطة به في عالم الشّهادة.

وكان منهج الإسلام أن يزيل التشوُّهات التي حاقت بهذه الفطرة، وأن يخلصها من الارتهان لإملاءات ضالة تلقتها فيما سبق، فأصبحت حائلاً بينها وبين قبول الحق الجديد: ﴿**وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلا يَهْتَدُونَ**﴾[1]، وحينما تتجرّد الفطرة من هيمنة الأفكار والتّصورات الفاسدة، ويشرق نورها فإنّها تكون مؤهّلةً -بتوفيق الله- لطلب سعادتها وإدراك الحق في الطريق الموصل إليها: ﴿**قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا**﴾[2].

وتكون جديرةً بحمل الأمانة العظمى التي حملها الله الإنسان: ﴿**إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً**﴾[3].

---

(١) الآية رقم (١٧٠) من سوة البقرة.

(٢) الآية رقم (٤٦) من سورة سبأ.

(٣) الآية رقم (٧٢) من سورة الأحزاب.

*** العبوديّة والتّوحيد** :

« لا إله إلا الله ، محمّد رسول الله » هذا هو عنوان الإسلام الكبير الذي تقوم عليه كل تعاليم الدين العقدّية والعباديّة والخلقيّة والتّشريعيّة .

الجـزء الأوّل من هذا العنوان « لا إله إلا الله » يعني إفـراد الله بأنواع التّوحيد الثلاثة دون شريك ، وهي توحيد الرّبوبيّة ، وتوحيد الألوهيّة ، وتوحيد الأسماء والصِّفات .

والتوحيد هو القضيّة الكبرى لدين الإسلام منذ آدم – عليه السلام – إلى أن تقوم السّاعة ، فما أرسل الله رسولاً إلا دعا إلى التّوحيد ، وكافح الشِّرك والوثنيّة .

ومن أبرز عناصر التّوحيد التي تمثِّل المعالم لإسلاميَّة الفرد والمجتمع والأمة، العناصر الثلاثة التالية :

– ألاَّ نبتغيَ غير الله ربّاً ، كما قال – سبحانه – في سورة الأنعام : ﴿ **قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ** ﴾[1] ؛ ممّا يعني إبطال الأرباب المزعومة أيّاً كانت ، واليقين بأن الله وحده هو الخالق الرّازق المدبِّر ، الذي بيده الخلق والأمر ، وإليه المرجع والمآل ، وأنّ من سواه لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً فضلاً عن غيره ، ويستلزم هذا اليقين الرّفض القاطع لعبوديّة غير الله وتأليهه ، وإفراد الله وحده بالعبادة والتذلّل والحبّ والخشية والرّجاء والتّوكّل والاستعانة .

ولهذا كان شعار المسلم دائماً هو « ربّنا الله » بهذا المعنى العظيم لها .

– ألاَّ نتّخذ غير الله ولياً كما قال – سبحانه – في السورة نفسها : ﴿ **قُلْ أَغَيْرَ**

---

(١) الآية رقم (١٦٤) من سورة الأنعام .

اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلا يُطْعَمُ ﴾(١) .

ومقتضاه أن يخلص المسلم ولاءه لله تقديماً لأمره ، وحبّاً له، ونصرةً لدينه، مطهراً نفسه وحركته من الولاء لغير الله وحزبه ؛ لأنّ الولاء لأعداء الله محاربةٌ لله وخروجٌ على دينه : ﴿ **لا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ ﴾**(٢). ولهذا كان الولاء لله ورسوله والمؤمنين ، والبَراء من الطواغيت والكفر وأهله أحد مبادئ التّميز الكبرى في الإسلام حتى قال النّاظم :

وما الدين إلاَّ الحبّ والبغض والوَلاَ كذاك البَرَا من كل غاوٍ وكافر

– ألاَّ نجعلَ غير شرع الله لنا حكماً كما قال – سبحانه – أيضاً في سورة الأنعام : ﴿ **أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلاً ﴾**(٣) .

ومقتضى هذا العنصر أن يتّخذ المسلم فرداً ومجتمعاً شريعة الله التي بيّنتها تعاليم الكتاب والسّنّة في كل ما قرّرته من تحليل وتحريم، وصحّة وفساد ، ومعروف ومنكر– أن يتّخذها – المنهج الذي يحكم حياته في كلِّ جوانبها وأحوالها، وأن يرد كلَّ تشريع لم يأذن به الله ، ويخالف شريعته، سواء كان عرفاً أو تقليداً ، أو قانوناً وضعياً، أو نظريّةً اجتماعيّةً، أو غير ذلك .

ولهذا فإنّ اتّخاذ شريعة غير شريعة الله خللٌ في توحيد الرّبوبيّة والألوهيّة ؛ لأنّه إشراكٌ لغير الله فيما هو من حقِّه – سبحانه – كما في تفسير الرّسول ﷺ لعدي بن حاتم قوله سبحانه : ﴿ **اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ ﴾**(٤)

---

(١) الآية رقم (١٤) من سورة الأنعام.

(٢) الآية رقم (٢٨) من سورة آل عمران.

(٣) الآية رقم (١١٤) من سوة الأنعام.

(٤) الآية رقم (٣١) من سورة التوبة.

حينما قال عدي : إنّهم لم يعبدوهم فقال ﷺ : « بلى، إنّهم حرّموا عليهم الحلال وأحلّوا عليهم الحرام فاتّبعوهم، فذلك عبادتهم إيّاهم »[1] .

ولكن ذلك لا يعني أنّ المجتمع المسلم لا يستفيد من الأنظمة والمناهج التي يصوغها البشر، وتنضجها التّجارب ، لكن استفادته منها تكون من خلال تحكيم الشّريعة فيها قبل اعتمادها ، فإن كانت لا تخالف الشريعة من جهة، وتحقق المصلحة الشرعية من جهةٍ ثانيةٍ، فإنّ أخذها يتجاوز المباح إلى المطلوب الشرعي .

والمراد أنّ الشريعة لا بدّ أن تكون هي المهيمنة على حركة المسلم كلها .

وهنا تأتي الجملة الثّانية في عنوان الإسلام وهي « محمّد رسول الله » فإنّ الإيمان بالله وتوحيده في الرّبوبية ، والإلهية ، والأسماء والصِّفات، وإفراده بالحكم يقتضي أن نلتمس حكمه وشريعته من مصدرها الحق، وهو النّبي الذي تلقّى من الله هذه الشريعة وبلّغها الناس[2] .

وشهادة أنّ محمداً رسول الله تعني الإيمان بأنّه ﷺ نبيٌّ مرسلٌ من الله لخلقه بشرعه ودينه، وأنّه معصومٌ في تبليغ ما بلّغ من الدين، وأنَّ كلَّ ما جاء به حقٌ واجب التّصديق والاتباع : ﴿ **وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً مُّبِينًا** ﴾[3] ، وقال سبحانه : ﴿ **فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا** ﴾[4] .

---

(١) انظر : تفسير القرآن العظيم، ابن كثير في تفسير قوله تعالى : ﴿ **اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ...** ﴾ الآية، ٢/ ٣٤٨، طبعة دار الفكر .

(٢) انظر في هذه العناصر : ملامح المجتمع الإسلامي الذي ننشده، يوسف القرضاوي، ص ١٤، الطبعة الأولى، مؤسسة الرسالة .

(٣) الآية رقم (٣٦) من سورة الأحزاب .

(٤) الآية رقم (٦٥) من سورة النساء .

وهكذا بهاتين الجملتين وبهذا العنوان تقوم العبودية لله فيكون الدين الحق :

- ألاَّ نعبدَ إلا الله = لا إله إلا الله .

- وألاَّ نعبدَه إلا بما جاء به نبيه من شريعة = محمد رسول الله [١] .

هذه العبودية تمثِّل القيمة الإنسانية الكبرى ؛ لأنّها مرتكز وجود الإنسان في هذه الحياة : ﴿ **وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ** ﴾[٢]، ولهذا فإنّها تهيمن على القيم الإنسانية كلها ، فلا تتحقق قيمة تلك القيم في إسعاد الناس وإقامة إنسانيتهم السَّوية ونيلهم الفلاح الأخروي إلاَّ إذا انبثقت تلك القيم من قيمة العبودية ، فمثلاً :

الحق : هو الله سبحانه وتعالى وهو وحيه الذي جاء به رسوله : ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ** ﴾[٣]، وهو حكمته في خلقه وإبداعه ﴿ **خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ** ﴾[٤] .

والعدل : هو في أعلى صوره التوحيد الذي تحدثنا عنه ؛ لأنّ الشرك هو الظلم المبين كما قال سبحانه : ﴿ **إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ** ﴾[٥]، وهو بعد ذلك شريعة الله في كل ما حكمت به بين العباد .

والخير : هو في صورته السامية المقبولة عند الله المرتفعة بمنزلة أهلها ، ذلك العمل الذي وُجِّهَ الوجهة الإنسانية وفق ما رسم الشرع، طلباً لرضوان الله : ﴿ **لا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلاَّ مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا** ﴾[٦] .

---

(١) انظر : العبودية، لابن تيمية، ص ١٧٠ .
(٢) الآية رقم (٥٦) من سورة الذاريات .
(٣) الآية رقم (١٧٠) من سورة النساء .
(٤) الآية رقم (٣) من سورة التغابن .
(٥) الآية رقم (١٣) من سوة لقمان .
(٦) الآية رقم (١١٤) من سورة النساء .

وهكذا سائر القيم الخلقية الحضارية .

ولهذا تبدو منظومة القيم الإنسانية في المجتمع المسلم ذات سمت مُتميِّز عن منظوماتها في المجتمعات الأخرى، وإن التقَتْ معها في عناوينً القيم وبعض صورها التطبيقية، كالعدل، والخير، والجمال، وغيرها .

*** الإيمان بالغيب** :

الإيمان بالغيب هو الدرجة التي يرتقي إليها الإنسان فرداً أو مجتمعاً ليتجاوز الحياة الحيوانية التي يعيشها الذين لا يتعدى تفكيرهم ولا هَمُّهم ولا سعيهم الحدود المادية القريبة منهم .

وقد جعل الباري – سبحانه – الإيمان بالغيب السِّمَةَ الأولى من سمات المؤمنين في أوّل سورة البقرة : ﴿ **الٓمٓ ﴿١﴾ ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ** ﴾[1] .

والإيمان بالغيب لدى المسلم ليس مجرد اعتقاد فكريٍّ أو تصديق قلبيٍّ يبقى في طوايا النفس بعيداً عن اهتمامات الإنسان وتخطيطه للحياة وحركته فيها .

كلاَّ، إنّ هذا الإيمان يُؤثِّر في تصوُّر المسلم للوجود كله ، وفي حياة المجتمع من حيث خُطَطُه المستقبلية ، ونهوضه الحضاري[2] ، وعلاقاته الدولية .

إنّ البون شاسعٌ بين الذين يمارسون الأعمال الإنسانية إغاثةً وتبرُّعات وعطاءات مُنوَّعةً ليقتضوا بها مزيدَ ثراء ، أو عُلوَّ جاه، أو دعايةً لمشاريعهم ، وبين الذينً يمارسونها استجابةً لأمر الله وطلباً لرضوانه .

---

(١) الآيات (١-٣) من سورة البقرة.

(٢) أقصد بالحضاري « الثقافي والمادي ».

والفرق كبير بين مجتمع ينظر إلى هذه الحياة بصفتها نهاية المطاف ، ومن ثم فرصته الوحيدة في الوجود ، فيرسم خُطَطَه ، ويُوحِّدُ جهده لاستيفاء مُتْعَته فيها دون رعاية لأيِّ اعتبار خارجها ، وبين المجتمع المسلم الذي يَعي أفرادُه أَنّ الحياة الحقيقيةً هي الحياة الآخرة ، وأنّ الدنيا دار مَمرٍّ ينبغي أن تكون مرحلة تأمين للمستقبل المتمثل بتلك الحياة الأخروية ، فقيمة الدنيا الاعتباريّة -لديهم- هو بهذا المقدار حسب توجيه الآية الكريمة : ﴿ **وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا** ﴾(١) .

فخُطَطُ هذا المجتمع وخدماته وإن تشابهت مع بعض خُطَط المجتمع المادي في أمور فَنِّيَّة كمّاً ونوعاً ، إلاَّ أنّها في أهدافها وترتيب أولوياتها متميِّزةٌ عنها ؛ لأنّها محكومةٌ بهذا التصوّر المتميِّز للحياة .

والإيمان بالغيب يشمل كل أركان الإيمان الستة الواردة في الأحاديث الشريفة ، كحديث سؤال جبريل للنبي ﷺ عن مراتب الدِّين الذي جاء فيه حينما سأله عن الإيمان قوله ﷺ : « **أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيرِه وشرِّه** »(٢) .

وعليه فالإيمان بالغيب يكون بما يلي :

* الإيمان بوجود الله وربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته .
* الإيمان بالملائكة ؛ بما أخبر الله به عنهم من خصائصَ ووظائفَ .
* والإيمان بأنّ الله اصطفى من خلقه أشخاصاً ، وأمدّهم بقوة تمكِّنهم

---

(١) الآية رقم (٧٧) من سورة القصص .

(٢) حديث جبريل المشهور رواه مسلم وغيره ، انظر : صحيح مسلم ، كتاب الإيمان ١/ ٣٦ ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت .

من تلقّي وحيه ، وتبليغه للناس[1] ، وهم الرّسل، وآخرهم محمّد ﷺ .

* والإيمان بأنّ الله أنزل على رسله كتباً تحمل هدايته للناس ، وآخرها القرآن الكريم المنزل على خاتم الرسل محمد ﷺ والذي هيمن على الكتب السابقة؛ ومن ثم انحصرت الهداية والشريعة فيما جاء به مع السنّة النبوية [2].

* والإيمان بقدر الله في الوجود ، حيث قدّر الأشياء والأحداث ، وأحاط بها علماً وكتابةً في اللوح المحفوظ ومشيئةً وخلقاً ، وأنّه ليس في العالم ما هو خارجٌ عن هذه المراتب الأربع ؛ لأنه لا ربّ في الوجود سوى الله سبحانه وتعالى .

* والإيمان باليوم الآخر بما فيه من بعثٍ ونشورٍ، وعرضٍ على الله

---

(١) فقد كان الوحي ينزل على الرسول ﷺ وأصحابه محيطون به فيتلقاه واعيا كل ما يسمعه، وأصحابه لا يدركون من ذلك إلا سماع دويّ كدويّ النحل عند رأسه، أو رؤية ذلك في شخصه ﷺ.

وقد قال العلماء في الفرق بين الرؤيا الصالحة لغير الأنبياء والوحي إلى الأنبياء هو الفرق بين الاستعداد البشري العام لمطالعة شيء من الحقائق الغيبية في لمحات خاطفة وبين الاستعداد النبوي الخاص لمطالعة تلك الحقائق.

فضلاً عما يقارن الرؤيا من عوارض تسمح فيها لدخول الأوهام والوساوس ولمسات الشيطان خلافاً للوحي المقترن بعلم يقيني من الموحى إليه بأن ما ألقي إليه حق معصوم من عند الله فضلاً عن ذلك فقد ذكر بعض العلماء في تعليل غطّ جبريل للنبي ﷺ عندما يرد الوحي إليه أنه « تمرينه على ما سيلاقيه من ثقل الوحي وشدائد النبوة » من كنوز السنة، محمد عبد الله دراز، ص ٢٣ .

(٢) وعليه فإن غيبية هذين الركنين (الرسل والكتب) إنّما هو في الإيمان بالخاصية الغيبية في كل منهما: الوحي إلى الرسل، وإنزال الكتب من الله، لا مجرد الاعتراف بالوجود الواقعي لهما؛ شخص اسمه محمّد أو عيسى، وكتب متداولة بين الناس، وإن آمن بعظمة هؤلاء الأشخاص وهذه الكتب فإنه لا يعد مؤمناً ما لم يؤمن بالرسالة والإنزال. يقول ابن تيمية – رحمه الله – في رسالة الظاهر والباطن: «الإيمان بالله وبرسله واليوم الآخر يتضمن الإيمان بالغيب فإن وصف الرسالة هو من المغيب». الرسائل المنبرية، ١/ ٢٣٠، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

وحساب ، ثمّ جنّة ونار ، وبأنّ المسؤوليّة الإنسانيّة أمام الله فرديّة ، حيث يحاسب الإنسان عن سيرة حياته الدنيويّة ، وما كسبه فيها من أعمال : ﴿ **فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ** ﴾[1] .

وهناك أنواع أخرى من الغيبيات التي يجب الإيمان بها يقيناً ؛ لأنّ الله أخبرنا بها في وحيه ، كالجنّ والشياطين ، وبداية الوجود الإنساني خلقاً وتكريماً ، وأخبار الأمم الغابرة مع أنبيائها ، ونحو ذلك .

والإيمان بالغيب وفق المنهج الإسلامي يُوسِّعُ آفاق الوجود أمام المسلم ، فيشعرُ أنّ مداه أوسع في الزّمان والمكان ، من المحيط المادي الذي يدركه بحواسّه ، ومن ثمّ تكون حركته وحركة المجتمع المسلم حركةً استخلافيَّةً في هذه الحياة ، مرتبطةً بالله استمداداً منه واستعانةً به وتعبّداً له ، ومرتبطةً بالحياة الآخرة استعداداً لها ، وتهيّؤاً للقدوم عليها ، ومرتبطاً بعالم الغيب عموماً ارتباطَ رعايةٍ وأخذٍ بالحسبان في كلّ تطلّعاته الفكرية وانطلاقاته العمليّة .

منهاج الحياة :

على قاعدة التّوحيد ومن أجل تحقيق العبوديّة لله في جوانب الحياة الإنسانيّة كلها جاء الوحي -القرآن والسنّة- بمنهاجٍ تشريعيٍّ يُلبِّي الحاجات الفطريّة للوجود الإنساني روحياً ومادياً ، في ضمير الفرد ومحيط الجماعة ، في كل المجالات العباديّة والخلقيّة والاقتصاديّة والاجتماعيّة والسِّياسيّة وغيرها .

بعضها جاءت أحكامه مُفَصَّلةً مُحدَّدةً ، وهو المتعلّق بالجوانب الثابتة من

---

(١) الآيتان (٧-٨) من سورة الزلزلة .

وجود الإنسان وعلاقته وحركته ، كشعائر العبادة وأحكام الجرائم الكبرى، والمقادير المحدّدة في المواريث والكفّارات ونحوها .

وبعضها وضع الوحي مبادئه العامة ، ورسم خطوطه الأساسية، وفسح المجال للعقل والتجربة البشريّة أن يجدِّد في صوره بحسب تطوّره الحضاري وقدراته الماديّة والفكريّة ، كما في البيوع والإجارة والسِّياسة ونحوها ، على أن تبقى تلك الصّور المستحدثة مأطورةً بإطار الشريعة محكومةً بها ، وإليك نموذجاً من نظم الحياة في الإسلام :

(١) نظام العبادة :

كل أفعال المسلم ما دامت ملتزمةً بشرع الله ومطلوباً بها وجهه فهي عبادةٌ، سواءٌ كانت صلةً بينه وبين الله كالصّلاة والدعاء ، أو بينه وبين الخلق كالمعاملات ، لكنَّ مصطلح العبادات غلب على الشَّعائر التَّعبديَّة التي ذكرت بعد الرّكن الأوّل من أركان الإسلام المتمثل بالشهادتين، وهذه الأركان هي الصّلاة والزّكاة والصّوم والحجّ، وما ألحق بها من طهارةٍ وصدقاتٍ وعمرةٍ وسائر نوافلها[١] .

والعبادة الإسلاميّة بأسسها وأهدافها وآثارها وأركانها تمثل أعظم تَميُّزٍ للمسلم -بعد الإيمان- عن البشر الآخرين .

ولا تنحصر العبادة بجانب فرديٍّ معزول عن الحياة الاجتماعيّة، وإنّما تأخذ في الغالب طابعاً جماعياً واجتماعياً واضحاً ومؤثراً على حركة الحياة الاجتماعيّة بعمومها .

---

(١) في حديث جبريل المشهور قال جبريل : « أخبرني عن الإسلام، قال : تشهد أن لا إله إلا الله وأنّ محمداً رسول الله، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلاً » . صحيح مسلم، كتاب الإيمان، ١/ ٣٦.

* **فالصلاة المفروضة** خمس مرّات في الأربع وعشرين ساعةً إذا حان وقتها وقف المسلم فرداً وجماعةً لأدائها ، ولها تبنى المساجد ويعلن الأذان وبأدائها جماعةً تتوثق روح الألفة والمحبة والتعاون على الخير بين أفراد المجتمع ، فضلاً عمّا تحقّقه في نفس المُصلّي نتيجة استسلامه لربِّه ومناجاته والشعور بمعيّته من سُموٍّ وإنسانيَّة وقوَّة قلبٍ[1] .

وهناك صلاة الجمعة التي يُمثِّل يومها عيد الأسبوع في الإسلام ، وهي شعارٌ عظيمٌ للمجتمع الإسلامي بخطبتيها وركعتيها الجهريَّتَيْن وتجمّعها الأكبر ، ولأنّ المجتمع المسلم قائمٌ على توحيد الله بالعبادة ، فإنّه لا مجال لإقامة أي نوعٍ من المشاهد والمعابد سوى المساجد التي ينبغي أن تكون العبادة فيها لله وحده[2] ، فلا يُدفن فيها أحدٌ فتُجعل مزاراً لدعوة غير الله والتّوسّل به والطَّواف حوله ، وما هو موجودٌ في كثير من مجتمعات المسلمين اليوم من هذه المشاهد والمساجد القائمة على الأضرحة ممّا لم يأت به الإسلام ، بل هو من تأثير الأمم الوثنيّة على المسلمين .

والصّلاة -فرائضها وما شرع من سنن وذكر مصاحب لها - لا تستغرق من الوقت إلاَّ يسيراً يُمثِّل حالةَ توقف للمسلم يقوي فيه ارتباطه بربِّه ، ويتزود فيه بطاقة مُعينة على كَبَد الحياة ، والأصل أنّها تتمّ في جو جماعي -فرائض وجُمَعاً وأعياداً . . . - مما يقضي بتحديد أوقات أدائها بدقّةٍ لينطلق المسلم بعدها لشؤون حياته الأخرى[3] .

---

(١) قال سبحانه : ﴿ إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ ﴾ الآية رقم (٤٥) من سورة العنكبوت .

(٢) قال تعالى : ﴿ وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَداً ﴾ الآية رقم (١٨) من سورة الجن .

(٣) قال سبحانه : ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاةُ فَانتَشِرُوا فِي الأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً ﴾ الآية رقم (١٠) من سورة الجمعة .

أمّا اعتزال النّاس للتّعبد الفردي ، والعزوف عن الحياة للتّفرغ لها، أو كما هو مشاهد في بعض المجتمعات، ينقطع أناس في المساجد والخلوات لتلاوة أوراد محدثة وممارسة طقوس تعبدية غير شرعية خلال أيام معينة أو مواسم محددة، فإنّها بدعٌ محدثةٌ ليست من الدين ، ولم يمارسها الصّحابة وهم نموذج التّطبيق الأمثل للمنهاج الإسلامي .

* **الزّكاة** : حثّ الإسلام على الإنفاق والصّدقة على الفقراء والمحتاجين، ولكنه لم يقف عند مجرد الحث على التبرّعات التطوّعية، وإنّما أوجب على القادرين مادياً صرف جزء محدّد يزداد بزيادة الثراء في مصارف مُعيَّنة تُغطِّي الاحتياجات الاجتماعية التي قدرها الشّارع(١) .

والأموال التي تجب فيها الزّكاة هي الخمسة التالية :

- النّقدان (الذّهب والفضّة) وما يقوم مقامهما من العملات .
- الزّروع والثِّمار .
- الرِّكاز .
- عروض التجارة .
- بهيمة الأنعام السَّائمة .

والزّكاة ليست من نوع الضّرائب التي تنظِّمها الدول على الواردات ونحوها ، ولكنّها عبادةٌ مفروضةٌ من الله يكْفُرُ من جحد وجوبها ، ويُقاتَلُ من رفض أداءها (٢) .

---

(١) قال تعالى : ﴿ **إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ** ﴾ الآية رقم (٦٠) من سورة التوبة .

(٢) كما فعل أبو بكر - رضي الله عنه - مع مانعي الزكاة .

ومن أبرز أهداف الزّكـاة : تطهيـر نفس المُزكِّي من الشُّحِّ ، وتنميـة المال ببركة الإنفاق، وهذا هو معنى الزّكاة لغةً[1] .

كما أنّها وسيلة من وسائل الضّمان الاجتماعي الذي يقي المجتمع المسلم من اختلال التوازن المادي بين أثرياء تتفـاقم ثرواتُهم وشحُّهم ، وفقراء يزداد عوَزُهم وضَيَاعُهم ، وينمي فيهم مشاعر الرحمة والحنان وحبّ الخير المتبادل، والتعاون لخير المجتمع بكلّ فئاته .

والدولة المسلمة هي المسؤولة عن جباية الزكاة وصرفها في مصارفها[2] .

* **الصِّيـام** : الإسـلام دينُ انضـباط في الحـركة ، وضـبطٍ للنّفس عن الانسياق وراء المغريات الشّهوانية التي توبقها .

والصّـوم عبـادةٌ تُمثِّل ذروةً في هذا الانضـباط ، حيث يكفُّ المسلم عن المباح له من الأكل والشُّرب والجماع نهاراً كاملاً لمدّة شهر في السّنة وجوباً عدا النّوافل، ممّا يُربِّيه على حجز نفسه عن الشّهوات المحرمة ، واللذّات الموقعة في الفسوق والعصيان ، ويجعله مرتبطاً بالله ، راغباً فيما عنده ، مؤثراً رضوانه على المُتَعِ الفانية التي جعلها عُبَّادُ الهوى غايتهم قائلين :

إنّما الدّنيا طعام وشـــرابٌ ومنـامُ
فإذا فاتك هــذا فعلى الدّنيا السّلامُ

ولأنّ الصِّيام محدّد الوقت والصِّفة ، فإنَّ شهرَهُ يُمثِّل موسماً عبادياً للأمّة

---

(١) فالزكـاة : الزكاء يعني الطّهر ، ويعني النّمـاء والزيادة، والله تعـالى يقول : ﴿ **خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ** ﴾ الآية رقم (١٠٣) من سورة التوبة .

(٢) لأمر رسوله بقوله : ﴿ **خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً...** ﴾ الآية رقم (١٠٣) سورة التوبة، ولفعل الرسول ﷺ ، ولموقف أبي بكر من مانعي الزكاة .

الإسلامية أجمع، تقبل فيه على الصِّيام والقيام والذّكر وقراءة القرآن والمنافسة في سبل الخير، ويتغيّر فيه البرنامج اليومي ؛ وجبات ويقظةً ونوماً وحركةً عن سائر الأيام ، ولهذا تبدو آثارُهُ واضحةً في المجتمع المسلم .

* **الحجّ** : لقاءٌ سنويٌّ جامعٌ مُحدَّدُ الوقت والمكان والبرنامج، يجب على كل مسلمٍ قادرٍ أن يشارك فيه مرّةً في عمره .

مكانه مهبط الوحي على محمّد ﷺ -مكّة المكرّمة - فيه إحرامٌ وطوافٌ حول الكعبة، وسعيٌ بين الصّفا والمروة ، ووقوفٌ بعرفة يوم التّاسع من شهر ذي الحجة، ومبيتٌ بمزدلفة ليلة العيد ، ورميٌ للجمار بمنى أيّام العيد، ومبيتٌ بها في لياليها، وحلقٌ للرّأس .

إنّ الحج تجريدٌ للتوحيد الذي هو قاعدة الإسلام كله حينما يعلن الحاج تلبيته : لبّيك اللّهمَّ لبَّيك لبَّيكَ لا شريك لك لبَّيك ، إنّ الحمد والنِّعمة لك والملك لا شريك لك .

وهو تحقيقٌ للأخوّة الإسلامية حينما يتوحّد مئات الألوف من الحجيج في لباسهم وتلبيتهم وحركتهم ، لا فرق بين غنيٍّ وفقيرٍ ولا أميرٍ ومأمورٍ .

وهو إرواءٌ للنَّزعة الفطريَّة لدى الإنسان التي تهفو إلى مشاهد تتعبّد عندها، فقد حقّق الإسلام للفطرة حضور هذه المشاعر مع الابتعاد به عن الشِّرك بها أو حولها، ممّا يقع فيه كثيرٌ من زُوَّار المشاهد الأخرى في العالم ؛ فالحاج وإن طاف حول الكعبة وقَبَّل الحجر الأسود ، والتزم ما بين الحجر والباب وصلّى خلف المقام ووقف حول جبل الرحمة ونحوها، فإنّه في كل ذلك مُتَّجهٌ إلى الله وحده بالتّعبّد دون شريكٍ .

(٢) النِّظام الخلقي للمجتمع المسلم :

الإسلام دعوةٌ خلقيّةٌ تهدف إلى تزكية النّفس والسّمو بالعلاقات بين الناس نحو الكمال الإنساني[١] .

فمن أجل ذلك أرسى الإسلام نظاماً خلقياً متيناً :

- فمن جهة المعيار الخلقي أقام الإسلام الفضيلة على الشّعور الفطري لدى الإنسان في المعروف والمنكر ، وعلى ما قرّره الوحي من خيرٍ ينبغي أن يُفعل وشرٍّ ينبغي أن يجتنب .

ولكن الوحي -القرآن والسنّة- هو المعتمد ؛ لأنّ الشّعور الفطري قد يُلابسه من الأهواء ما يُشوِّهه .

- ومن جهة الالتزام الخلقي أناط الإسلام بإيمان المسلم بالله واليوم الآخر مهمّة ردعه عن المنكر ودفعه نحو المعروف، وبما أنّ هذا الإيمان قد يضعف فلا يصبح قوّةً دافعةً نحو الفضيلة ، رادعةً عن الرذيلة، أناط الله بالمجتمع المسلم كله من خلال الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر والنصيحة ونحوهما من صور الضّغط الاجتماعي هذه المهمّة تجاه من ضعف إيمانه ، فإن لم يبال بالمجتمع وضغطه فإنَّ مُهمّةَ أطره على الحق وحماية الفضيلة أن تنتهك من قبله تتعلّق بالدّولة من خلال ما شرعه الله من حدود ، وما خَوَّلَ للحاكم المسلم أن يتخذه من أسبابٍ لحماية المجتمع وصيانته من لَوْثَاتِ الفساد الخلقي .

والحق أنّ مهمّة الحاكم المسلم إزاء الأخلاق تتمثل بما يلي :

---

(١) قال ﷺ : « إنّما بعثت لأتمّم حسن الأخلاق » رواه مالك في الموطّأ . وقال محقّق جامع الأصول : « للحديث شواهد يرتقي بها إلى درجة الحسن» ٤/ ٤ .

- نشر الفضيلة والدعوة إليها ، وتثقيف الناس بها من خلال التعليم والإعلام وغيرهما .
- تثبيتها في النفوس والحياة حتى تترسّخ في بِنْيَةِ المجتمع .
- حمايتها من الذبول والفساد من خلال جهد مشترك بين أفراد المجتمع بالرقابة اليقظة وبين الدولة بتطبيق التشريعاتً الحافظةً لسمت المجتمع خلقياً[1] .

(٣) النِّظام الاجتماعي :

وهو الذي يحكم العلاقات بين الزوجين والأولاد ووالديهم وذوي الرّحم، وهو ما يسمّى أحياناً بالنظام الأسري ، ويحكم العلاقات الثّنائية بين المسلمين عموماً ، بل بين المسلم وغير المسلم .

وفي هذا المجال رسَّخَ الإسلام عدداً من القيم الكبرى التي تقوم عليها العلاقات الاجتماعية ، كالعدل والإحسان ، والتكامل ، وحبّ الخير للغير، والأخوّة ، والوحدة بين المسلمين والحقوق المتبادلة المحدّدة في أنواعها :

فبين الزّوجين -مَثَلاً- حقوقٌ خاصةٌ تختلف عن الحقوق بين الأولاد ووالديهم ، وعن الحقوق العامة بين سائر المسلمين وإن تداخلت في بعضها .

وزيادةً على القيم التي جعلها الشرع قاعدةً للعلاقات الاجتماعية هناك الآداب التكميلية التي تسمو بالتعامل الاجتماعي لدى المسلمين إلى درجةٍ عاليةٍ من النُّبْلِ الإنساني والسُّمُوِّ الخلقي .

---

(١) انظر : ملامح المجتمع المسلم الذي ننشده، للقرضاوي، ص ١٠٧ .

(٤) النِّظام الاقتصادي :

غاية الاقتصاد في الإسلام تحقيق العبوديّة لله وحده ، ولهذا لو تعارضت بعض الصور الاقتصادية مع العبوديّة فإنّ خيار المسلم الوحيد هو التخلّي عن تلك الصّور مهما كان مردودها المادّي ، والاستمساك بالعبوديّة .

والحركة الاقتصاديّة مسؤوليَّةٌ يتحمّلها المسلم أمام الله من جانبين :

- جانب الكسب .
- وجانب التصريف والإخراج .

وقد بيّن الشّارع المسالك المشروعة للكسب والإنفاق ، والمسالك المحرّمة حتى يتحمّل الإنسان مسؤوليّته على وضوحٍ وتبيُّنٍ للمنهج السّديد .

ومن ملامح نظام الإسلام الاقتصادي :

- إقرار الملكيّة الفرديّة المقيّدة بضوابط الشّريعة حينما يتجاوز صاحبها حدود الشرع كسبا أو صرفا .
- وكذلك اعتبار « الملكيّة العامة » للدولة ، وقد أعطى الإسلام الدولة المسلمة حقّ التدخل في ملكيّة الأفراد تحقيقاً لمقاصد الشّريعة .
- العمل هو الأساس في تحصيل المكاسب الماديّة، وهو قائمٌ على مبدأ الاستخلاف في الأرض، لاستثمار خيراتها في طاعة الله .
- رأس المال أساس أيضاً ، وقد دعا الإسلام للمحافظة عليه وإنمائه وأداء حقوقه، وعلى رأس المال المتمثّل بالملكيّة الفرديّة والعمل الإنساني -عليهما معاً- تقوم العمليّة الإنتاجيّة .

والخلاصة أنّ الاقتصاد في الإسلام :

- مرتبطٌ بالمنهاج الإسلامي الشّامل ، ومنطلقٌ من الأساس العقدي .

- وأنّه مجالٌ مفتوحٌ لتوليد صورٍ جديدةٍ تساوق الحالة المدنيَّة التي يعيشها الناس.
- لكنّه يبقى مأطوراً بالضّوابط التي جاءتْ بها تعاليم الوحي في كلّ صوره، وسائر حركته إنتاجاً وإخراجاً.

(٥) النظام السّياسي:

لما كان ضبطُ الحياة البشريّة وحركتها وفق المنهج الإنساني الرشيد من أهداف الإسلام التي جاء لتحقيقها، جاءت نصوصه التي توجّه إلى إقامة النّظام السياسي وبناء الدولة:

ومن ذلك قوله ﷺ: «إذا خرج ثلاثةٌ في سفرٍ فليُؤَمِّروا أحدهم»[١] «فأوجب -كما يقول ابن تيمية- تأمير الواحد في الاجتماع القليل العارض في السّفر تنبيهاً بذلك على سائر أنواع الاجتماع»[٢].

وفي قوله تعالى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ**﴾[٣] ثم قال في الآية بعدها: ﴿ **أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ**﴾[٤]، فبيّن واجب الحاكم في الأولى وواجب الرّعيّة في الثانية.

وقد أوجب الرّسول ﷺ انتماء المسلم إلى الدّولة الإسلاميّة والارتباط بها بالبيعة، قال ﷺ: «من خلع يداً من طاعةٍ لقي الله يوم القيامة ولا حجة له،

(١) أخرجه أبو داود برقم (٢٦٠٨) في الجهاد، قال محقق جامع الأصول - وهو عبد القادر الأرناؤوط -: إسناده حسنٌ، ٥/ ١٨، الطبعة الخامسة، ١٣٩٢هـ.
(٢) السياسة الشرعيَّة في إصلاح الراعي والرعية، ابن تيمية، ص ١٦٩، دار الكتاب العربي.
(٣) الآية رقم (٥٨) من سورة النساء.
(٤) الآية رقم (٥٩) من سوة النساء.

ومن مات وليس في عنقه بيعةٌ مات ميتةً جاهليَّةً »[1] فضلاً عن المقتضى المنطقي، حيث جاء الدّين بتشريعات في الجهاد، وإقامة الحدود ونحوها ، ممّا لا يمكن إقامته إلاّ بنظامٍ سياسي ، ودولةٍ تقوم بتنفيذه .

والنظام السياسي له جانبان :

- المقوّمات التي تمثّل القيم التي يتشكّل منها وينضبط بها .
- والأجهزة الآليّة التي تقوم على تلك القيم وتخدمها .

في الجانب الأوّل أرسى الإسلام للنظام السياسي عدداً من المقوّمات الشّاملة من أبرزها :

* **العقيدة** : فالدولة الإسلاميّة دولةٌ عقديّةٌ تقوم على توحيد الله ، وتسعى لترسيخه في الحياة البشريّة ، وتحقيق العبوديّة لله وحده، وجعل كلمته هي العليا .

* **التزام الشّريعة** : بالتقيّد بما جاء في القرآن الكريم والسّنة المطهّرة من أحكام وآداب من قبل الشّعب والسّلطة معاً برضًا وتسليم : ﴿ **فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا** ﴾[2] والعدول عن شريعة الله في الحكم خللٌ في إسلاميّة الدولة قد يصل إلى محق هذه الصفة ، والحكم بتشريعات أخرى استبدالٌ للذي هو أدنى بالذي هو خيرٌ: ﴿ **أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ** ﴾[3] .

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب الإمارة برقم (١٨٥١).

(٢) الآية رقم (٦٥) من سورة النساء.

(٣) الآية رقم (٥٠) من سورة المائدة.

* **البيعة** : وهي ميثاقٌ بين عنصري الدولة :

- الشعب .

- والحاكم .

حيث يتعهّد الحاكم لأهل الحلّ والعقد ، ومن ثمّ للشعب بأن يحكم بالكتاب والسنة، وأن ينصح للمسلمين ، ويبايعه الناس على الطاعة والنصرة في المنشط والمكره إلاّ في معصية الله .

* **الشورى** : العمل التنفيذي للحاكم المسلم نوعان :

- نوع جاءت بشأنه أحكامٌ شرعيّةٌ نصيّةٌ، وهذه لا مجال فيها للشورى ؛ لأنه لا خِيَرَةَ للمسلم بعد حكم الله ، فالمَرَدُّ فيها إلى تعاليم الكتاب والسّنة مباشرةً ، فيما هو معلومٌ بالضرورة ممّا يدركه عموم الناس منها كالشعائر الكبرى، والقيم العليا ، ونحوها، وإلى هذه التعاليم من خلال اجتهاد علماء الشريعة في القضايا التي تحتاج إلى جهدٍ عقليٍّ يبذله الفقهاء للوصول إلى أحكامٍ شرعيّةٍ فيها .

- ونوع مبناه رعاية المصلحة العامة للأمة والمقاصد الشرعية الكليّة، كالتصرّفات السياسية الظرفيّة المتعلّقة بالحروب ، والمعاهدات والعلاقات والأنظمة التنفيذيّة الإداريّة والماليّة ونحوها ، وهذا النوع هو الذي تكون فيه الشورى من قِبَل الحاكم المسلم لأهل الحلِّ والعقد، أو لذوي الاختصاص، أو لذوي الرّأي والمشورة ونحوهم .

وبهذا أمر الله نبيّه فقال : ﴿**فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ**﴾ (١).

---

(١) الآية رقم (١٥٩) من سورة آل عمران.

* **العدل** : هو القيمة التي بعث الله رسله لإقامتها في حياة الناس : ﴿ **لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ** ﴾[1] وقد أمر سبحانه بالحكم به : ﴿ **وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ** ﴾[2] .

ويكون العدل بتطبيق أحكام الشريعة الإسلاميّة ، ثمّ باعتماد القيم الإنسانيّة بالمساواة بين الناس ، وإسناد المهمّات للمؤهّلين لها ، وبحماية الناس من الظّلم وإزالته عنهم .

* **حماية الحقوق الإنسانيّة** : الحياة الإنسانيّة -فرديّةً واجتماعيّةً وحضاريّةً- قوامها هو نفوس الناس وعقولهم ، وعقائدهم وأخلاقهم وأموالهم .

ولحفظ هذه الحقوق جاءت الشريعة الإسلاميّة بحفظ الحياة والتملّك والتديّن والعفّة والعرض وكرامة الإنسان وفكره ، ودرأتْ الإضرار بها والاعتداء عليها ، وجعلت هذا الاعتداء جريمةً يجازى فاعلها بالعقوبة الكافية قتلاً أو قطعاً لبعض الأعضاء ، أو جلداً أو غير ذلك ممّا جاءت به الشريعة وجعلتْ السّلطة هي المسؤول الأوّل عنها .

* **قيام السّلطة بوظائف الدّولة** : وهذه الوظائف استنبطها العلماء الباحثون في شؤون الحكم من الأدلّة الشّرعيّة ، وتطبيق الرّسول ﷺ وخلفائه الرّاشدين ، وممّا تستلزمه المصلحة الشّرعيّة .

ومن أبرز هذه المهمّات :

---

(١) الآية رقم (٢٥) من سورة الحديد .

(٢) الآية رقم (٥٨) من سورة النساء .

أ - حماية الإسلام في عقائده وأخلاقه وتنفيذه في شعائره وشرائعه ، ممّا يستلزم تربية الناس على الإيمان والأخلاق ، والتوجيه الإعلامي الملتزم بالفضيلة ، ومحاربة الانحرافات الفكريّة والسّلوكيّة .

ب - تحقيق الأمن وعدم الإخلال به من دعاة الفتن والفساد في الدّاخل ، ومن اعتداءات الأعداء من الخارج .

جـ - إقامة الحدود وردع أهل الظلم ، وحلّ المشكلات بقوّة الحكم ، وهي الوظيفة القضائيّة .

د - حفظ الاقتصاد وتنميته : سواء كان اقتصاد الدولة المسمى بـ(المال العام) في موارده ومصارفه ، أو اقتصاد مؤسسات الشعب وأفراده في البيوع والتأجير والعمل والإنتاج والتصنيع . . . إلخ .

هـ - تأهيل الناس وإعدادهم ؛ ليتوفّر منهم من يملك الأمانة والقوّة ، فَيُوَلَّى في وظائف الدّولة .

و - إعلاء كلمة الله في الأرض بالدّعوة إلى دين الله ونشر الإسلام بشتّى الوسائل وإقامة علم الجهاد في سبيل الله .

أمّا الجانب الثاني من النّظام السّياسي وهو « الأجهزة الآلية التي تقوم على تلك المقوّمات وتتمثّلها » فإنّ مجالها واسعٌ ؛ لأنّ الشريعة لم تحدّد نمطاً واحداً لمؤسسات الحكم وإجراءات تطبيقه ، إلاّ ما جاء في تلك المقوّمات من بيعة وشورى ، وخضوع للشريعة ، واستهداف للمصلحة العامة ونحوها من القواعد العامة . فالتولية ، والبيعة ، والشورى ، والولايات التنفيذيّة والنيابيّة ، يمكن تحقيقها بأساليب مختلفة وصيغ تطبيقيّة تراعي في كلّ نمط منها ما يناسب أحوال الناس الاجتماعيّة والفكريّة والحضاريّة[1] .

(١) التنوع هنا هو في الصور الإجرائية للتطبيق أما مضامينها الكلية وضوابطها فقد استقرت في الفقه الإسلامي منذ قرون.

« إنّ الإسلام في كتابه وسنّته ألزمنا بمبادئ وقواعد عامة للحكم ، ولم يلزمنا بشكلٍ معيّن من أشكال الحكم محدد الجزئيّات والتفصيلاتً ، وكلّ نظامٍ يقوم على تلكً المبادئ والأسس التي جاء بها الإسلام يعتبر نظاماً إسلاميّاً »[1] .

* * *

هذه هي معالم التشكيل الإسلامي للمجتمع :

- إعادة الإنسان لفطرته السّويّة .
- وتحقيق العبوديّة والتوحيد لله .
- والإيمان بالغيب .
- وإقامة الحياة على منهاج الله الذي شرعه في العبادات والأخلاق والاقتصاد والسّياسة ، وسائر جوانب الحياة الفرديّة والاجتماعيّة .

وقد تمثّل هذا التشكيل بأعلى صوره في مجتمع صحابة رسول الله ﷺ ممّا حقّق لهم فتوحات سريعةً كبيرةً ، ونقلةً حضاريّةً عجيبةً من الأميّة والسّذاجة والهمّ القريب والتخلّف في جوانب عديدة حينما كانوا في جاهليّتهم، إلى أمّةٍ علميّة مثقّفة ، يتجاوز همّها المصالح القريبة إلى المطالب الإنسانيّة الكبيرة في التحرير من عبوديّة العباد، ومن الظلم ومن عبثيّة الحياة ، أمّةٍ خلقيّةٍ تُعلي الفضيلة، وتقاوم الرّذيلة .

وعاشت الأجيال التالية للصحابة على هذا التراث المجيد ، ولكنّ هذه الأجيال لم تلتزم ذلك التشكيل التزام الصّحابة ، فصار يضعف هذا الالتزام قرناً بعد قرن بتأثير الأفكار المنحرفة، والأديان الباطلة ، وتقاليد الأمم وثقافاتها على المسلمينً ، حتى لم يعد لذلك التشكيل في صفائه وتكامله في كلّ جوانب الحياة

(١) نظام الإسلام - الحكم والدولة، محمد المبارك، ص٥٥ ، الطبعة الثالثة، دار الفكر، بيروت.

-بعد عشرة قرون من الرّسالة- وجودٌ إلاّ لدى أفرادٍ وفئاتٍ قليلةٍ من الناس .

وكان يظهر المصلحون والمجدّدون ليعودوا بالأمة سيرتها الأولى ، فيصلحون ما كتب الله لهم إصلاحه في مُحِيطهم القريب ، وفي تلامذتهم ومن حولهم .

وكان من أبرز المصلحين الذين وُفِّقُوا في جهدهم الإصلاحي الشيخ محمّد بن عبد الوهّاب رحمه الله تعالى .

obeikan.com